مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الخَامِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

سِيرَة النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْد الْمَكِّي]

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

سُكَانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

فَسُكَّانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَرِيقَانِ:

بَدْوٌ: وَهُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ، وَيَرْتَحِلُونَ وَرَاءَ الْعُشْبِ، وَالْكَلَإِ، وَيَتَتَبَّعُونَ مَوَاقِعَ الْغَيْثِ وَالْمَطَرِ، وَيَنْصِبُونَ الْخِيَامَ، -وَهِيَ الْبُيُوتُ مِنَ الْوَبَرِ وَالشَّعَرِ-، وَهُمُ الْأَكْثَرُونَ لَاسِيَّمَا فِي الشَّمَالِ؛ الْحِجَازِ وَمَا وَالَاهَا مِنْ نَجْدٍ، وَتِهَامَةَ.

وَحَضَرٌ: وَهُمُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْقُرَىٰ، وَالْمُدُنَ، وَيَسْكُنُونَ بُيُوتًا مِنَ اللَّبِنِ وَالْحَجَرِ، وَمُعْظَمُ هَؤُلَاءِ كَانُوا يَسْكُنُونَ فِي الْجَنُوبِ؛ الْيَمَنِ وَمَا جَاوَرَهَا، وَعَلَىٰ تُخُومِ بِلَادِ فَارِسَ، وَالرُّومِ.

سُكَّانُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، يَعْنِي: فِي الْعَهْدِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

www.menhag-un.com

وُجُودُ بَعْضِ الْمَدَنِيَّاتِ وَالْحَضَارَاتِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

وَقَدْ نَشَأَتْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ حَضَارَاتٌ أَصِيلَةٌ، وَمَدَنِيَّاتٌ عَرِيقَةٌ مِنْ أَشْهَرِهَا:

حَضَارَةُ سَبَأٍ بِالْيَمَنِ: وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ الْمَجِيدُ -الَّذِي هُوَ أَوْثَقُ الْمَصَادِرِ، وَأَحَقُّهَا بِالْقَبُولِ- عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ بِلَادِ الْعَرَبِ حَضَارَاتٌ قَدِيمَةٌ، وَعُمْرَانٌ، وَخِصْبٌ، وَنَمَاءٌ، وَرَخَاءٌ، وَتَقَدُّمٌ.

فَفِي الْيَمَنِ اسْتَفَادُوا مِنْ مِيَاهِ الْأَمْطَارِ، وَالسُّيُولِ الَّتِي كَانَتْ تَضِيعُ فِي الرِّمَالِ، وَتَنْحَدِرُ إِلَىٰ الْبِحَارِ فَأَقَامُوا الْخَزَّانَاتِ وَالسُّدُودَ بِطُرُقٍ هَنْدَسِيَّةٍ بَدِيعَةٍ، وَأَشْهَرُ هَذِهِ السُّدُودِ سَدُّ مَأْرِبٍ، وَاسْتَفَادُوا بِمِيَاهِهَا فِي الزُّرُوعِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْحَدَائِقِ ذَاتِ الْأَشْجَارِ الزَّاكِيَةِ، وَالثِّمَارِ الشَّهِيَّةِ، قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٥- ١٧].

كَمَا دَلَّ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ الْغَابِرِ قُرًى

مُتَّصِلَةٌ مَا بَيْنَ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الْحِجَازِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، وَأَنَّ قَوَافِلَ التِّجَارَةِ، وَالْمُسَافِرِينَ كَانُوا يَخْرُجُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ، فَلَا يَعْدِمُونَ ظِلًّا وَلَا مَاءً، وَلَا طَعَامًا كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨- ١٩].

كَمَا قَامَتْ حَضَارَاتٌ أُخْرَىٰ فِي غَيْرِ الْيَمَنِ؛ فَقَدْ كَانَتِ الْأَحْقَافُ شَمَالَ حَضْرَمَوْتَ قَبِيلَةُ عَادٍ، وَهُمُ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيُّ اللهِ هُودٌ، وَكَانُوا أَصْحَابَ بُيُوتٍ مُشَيَّدَةٍ، وَمَصَانِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَجَنَّاتٍ وَزُرُوعٍ وَعُيُونٍ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣- ١٣٤].

وَكَذَلِكَ كَانَتْ حَضَارَةٌ فِي بِلَادِ الْحِجْرِ حَيْثُ تَسْكُنُ ثَمُودُ، وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ نَحْتِ الْبُيُوتِ فِي الْجِبَالِ، وَعَلَىٰ مَا كَانَ يُوجَدُ فِي بِلَادِهِمْ مِنْ عُيُونٍ وَبَسَاتِينَ وَزُرُوعٍ قَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤١- ١٥٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِيهِمْ أَيْضًا: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وَقَدِ اضْمَحَلَّ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ زَمَانٍ طَوِيلٍ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا آثَارٌ وَرُسُومٌ، فَقَدْ دَرَسَتِ الْقُرَىٰ وَالْمُدُنُ، وَتَخَرَّبَتِ الدُّورُ وَالْقُصُورُ، وَنَضَبَتِ الْعُيُونُ، وَجَفَّتِ الْأَشْجَارُ، وَانْمَحَتِ الْبَسَاتِينُ وَالزُّرُوعُ.

وَتَدُلُّ الْبُحُوثُ وَالدِّرَاسَاتُ الَّتِي قَامَ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْمُنَقِّبُونَ عَنْ بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَىٰ: أَنَّ تَغْيِيرًا كَبِيرًا طَرَأَ عَلَىٰ جَوِّهَا، وَأَنَّ هَذَا الْجَفَافَ الَّذِي نَعْهَدُهُ الْآنَ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فِي الْعُصُورِ الَّتِي سَبَقَتِ الْإِسْلَامَ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْجَفَافَ أَثَّرَ تَأْثِيرًا سَيِّئًا فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَجَعَلَ أَكْثَرَ بِقَاعِهَا صَحَارِيَ جَرْدَاءَ، كَمَا أَثَّرَ فِي حَالَةِ سُكَّانِهَا فَقَاوَمَ نُشُوءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْكُبْرَىٰ، وَأَثَّرَ تَأْثِيرًا خَطِيرًا فِي تَارِيخِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَفِي حُدُوثِ الْهِجْرَاتِ.

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ التَّغَيُّرِ الَّذِي طَرَأَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ سَوَاءً أَكَانَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَنَاخِيَّةِ أَمْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجُيُولُوجِيَّةِ؛ فَأَدَّىٰ إِلَىٰ مُقَاوَمَةِ

الْحَضَارَةِ، وَمَنَعَ نُشُوءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الْكُبْرَىٰ بِهَا، وَحَوَّلَ أَرَاضِيَهَا إِلَىٰ بِقَاعٍ صَحْرَاوِيَّةٍ، وَطَبَعَ الْحَيَاةَ فِيهَا بِطَابَعِ الرِّحْلَةِ، وَالِانْعِزَالِيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ.

وَيَمِيلُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ الَّذِينَ جَابُوا أَنْحَاءَ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَىٰ تَأْيِيدِ الْقَوْلِ بِظُهُورِ الْجَفَافِ فِي الْأَلْفِ الثَّانِي قَبْلَ الْمِيلَادِ.

وَهَذِهِ الْحَقَائِقُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ مُنْذُ قُرَابَةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا عَلَىٰ لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ جَاءَ عُلَمَاءُ الْآثَارِ وَطَبَقَاتِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَوَصَلُوا إِلَىٰ مَا أَيَّدَ هَذِهِ الْحَقَائِقَ كُلَّ تَأْيِيدٍ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالْآيَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ أَنَّهُ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ مُنَقِّبًا، وَلَا بَاحِثًا عَنِ الْآثَارِ، وَلَا كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مَنْ كَانَ يَعْلَمُ هَذَا، قَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ الَّذِي عَلَيْهِ شِبْهُ الْجَزِيرَةِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فِي سَالِفِ الْعُصُورِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ أَنَّ هَذَا الْوَضْعَ سَيَعُودُ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ هَذَا الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ: «**فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَعُودَ صَحْرَاءُ الْعَرَبِ مُرُوجًا، وَبَسَاتِينَ**»، وَكَلِمَةُ «**تَعُودُ**»: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ كَذَلِكَ فِي سَالِفِ الْعُهُودِ.

وَهَذَا مَا قَدْ أَثْبَتَهُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ، وَيُنَقِّبُونَ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُ وُجِدَ فِي صَحْرَاءِ الرُّبُعِ الْخَالِي، فِي الصَّحْرَاءِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ، وُجِدَتْ آثَارٌ بَحْرِيَّةٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَاءٌ، وَكَانَتْ هُنَاكَ كَائِنَاتٌ بَحْرِيَّةٌ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ فِي يَوْمٍ مِنَ الدَّهْرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُبَيِّنُ أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تَعُودَ صَحَارِي الْعَرَبِ مُرُوجًا خَضْرَاءَ، تَعُودُ كَمَا كَانَتْ فِي سَالِفِ الْعُهُودِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤]، فَيُنَبِّئُهُ بِذَلِكَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَهُوَ ﷺ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ.

فَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ كَانَتْ فِيهَا حَضَارَاتٌ لَهَا شَأْنٌ، وَلَهَا كِيَانٌ، كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَالِاسْتِدْلَالُ فِيهِ بِالْكِتَابِ الْمَجِيدِ الَّذِي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

www.menhag-un.com

صِلَةُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِالنُّبُوَّاتِ وَالْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ

وَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَهْدُ نُبُوَّاتٍ كَثِيرَةٍ، وَمَبْعَثُ عَدَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وَالْمُرَادُ بِهِ نَبِيُّ اللهِ **هُودٌ** الَّذِي أُرْسِلَ إِلَىٰ عَادٍ، وَعَادٌ مِنَ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، عَلَىٰ قَوْلِ الْمُؤَرِّخِينَ، وَكَانَ مَوْطِنُهَا: الْأَحْقَافَ.

وَالْحِقْفُ: كَثِيبٌ مُرْتَفِعٌ مِنَ الرِّمَالِ، وَكَانَتْ مَنَازِلُ عَادٍ عَلَىٰ الْمُرْتَفَعَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ، وَهِيَ الْآنَ تَقَعُ فِي الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الرُّبُعِ الْخَالِي قَرِيبًا مِنْ حَضْرَمَوْتَ لَا عُمْرَانَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ، وَكَانَتْ جَنَّاتٍ وَمُنْتَزَهَاتٍ مَعْمُورَةً بِأَقْوَامٍ جَبَابِرَةٍ، يُسَمَّوْنَ عَادًا، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ جَلَبَتْ عَلَيْهِمْ طُوفَانًا مِنَ الرِّمَالِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ هُودًا عليه السلام لَمْ يَكُنِ الْأَوَّلَ أَوِ الْآخِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، بَلْ سَبَقَهُ أَنْبِيَاءُ كَثِيرُونَ، وَلَحِقُوا بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾.

www.menhag-un.com

إِسْمَاعِيلُ عليه السلام فِي مَكَّةَ

وَكَذَلِكَ صَالِحٌ نَبِيُّ ثَمُودَ كَانَ مَبْعَثُهُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ؛ فَإِنَّ ثَمُودَ كَانَتْ تَسْكُنُ الْحِجْرَ الَّذِي بَيْنَ الْحِجَازِ وَتَبُوكَ، وَقَدْ نَشَأَ إِسْمَاعِيلُ فِي مَكَّةَ، وَعَاشَ فِيهَا وَمَاتَ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ مَدْيَنَ تَدْخُلُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي إِطَارِهَا الْوَاسِعِ فَقَدْ كَانَ شُعَيْبٌ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَرَبِ، فَقَدْ كَانَتْ مَدْيَنُ فِي أَطْرَافِ أَرْضِ الْعَرَبِ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ.

قَالَ أَبُو الفِدَاءِ: كَانَ قَوْمُ مَدْيَنَ قَوْمًا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَتَهُمْ مَدْيَنَ الَّتِي هِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَرْضِ مَعَانٍ مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ مِمَّا يَلِي مِنْ نَاحِيَةِ الْحِجَازِ، قَرِيبًا مِنْ بُحَيْرَةِ قَوْمِ لُوطٍ، وَكَانُوا بَعْدَهُمْ بِمُدَّةٍ قَرِيبَةٍ، وَكَانَتْ أَرْضُ الْعَرَبِ مَأْوًىٰ لِكَثِيرٍ مِنْ أَصْحَابِ الرِّسَالَاتِ، وَالدَّعَوَاتِ الَّذِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَتَنَكَّرَتْ لَهُمْ أَوْطَانُهُمْ، فَلَمْ يَجِدُوا مَأْوًىٰ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ عَنْ نُفُوذِ الْمُلُوكِ الْجَبَّارِينَ، وَالرُّؤَسَاءِ الظَّالِمِينَ كَمَا كَانَ الشَّأْنُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَّةَ، وَمُوسَىٰ فِي مَدْيَنَ.

هَذَا عَدَا الدِّيَانَاتِ الَّتِي لَقِيَتِ اضْطِهَادًا فِي مَهْدِهَا، فَآوَتْ إِلَىٰ مَوَاطِنَ فِي الْجَزِيرَةِ، فَهَاجَرَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ حِينَ لَقُوا اضْطِهَادًا مِنَ الرُّومَانِ إِلَىٰ أَرْضِ

الْيَمَنِ، وَمَدِينَةِ يَثْرِبَ، وَلَجَأَتِ النَّصْرَانِيَّةُ إِلَىٰ أَرْضِ نَجْرَانَ؛ فِرَارًا مِنْ حُكْمِ الْقَيَاصِرَةِ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهَا.

قَصَدَ نَبِيُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَخَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَهِيَ فِي وَادٍ مَحْصُورٍ بَيْنَ جِبَالٍ جَرْدَاءَ لَيْسَ فِيهِ مَا يَعِيشُ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ مَاءٍ وَزَرْعٍ، وَمِيرَةٍ، وَمَعَهُ زَوْجُهُ هَاجَرُ، وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ؛ فِرَارًا مِنَ الْوَثَنِيَّةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْعَالَمِ، وَرَغْبَةً فِي تَأْسِيسِ مَرْكَزٍ يَعْبُدُ فِيهِ اللهَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ مَنَارًا لِلْهُدَىٰ، وَمَثَابَةً لِلنَّاسِ، وَنُقْطَةَ انْطِلَاقٍ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالدِّينِ الْخَالِصِ.

تَقَبَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هَذَا الْعَامِلَ الْخَالِصَ، وَبَارَكَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَأَجْرَىٰ اللهُ الْمَاءَ لِهَذِهِ الْأُسْرَةِ الْمُبَارَكَةِ الصَّغِيرَةِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ أُمٍّ وَابْنٍ، وَقَدْ تَرَكَهُمَا إِبْرَاهِيمُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْقَاحِلِ الْمُنْعَزِلِ عَنِ الْعَالَمِ، وَكَانَ بِئْرُ زَمْزَمَ، وَبَارَكَ اللهُ فِي هَذَا الْمَاءِ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ لَا يَزَالُ فِي جِهَادٍ وَدَعْوَةٍ، وَانْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ اللهِ، وَيَعُودُ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَيَقْضِي فِيهَا أَيَّامًا ثُمَّ يُغَادِرُهَا.

وَنَشَأَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَرَادَ إِبْرَاهِيمُ ذَبْحَ ابْنِهِ، وَهُوَ غُلَامٌ يَسْعَىٰ؛ إِيثَارًا لِحُبِّ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حُبِّهِ، وَتَحْقِيقًا لِمَا رَآهُ فِي الْمَنَامِ، وَاسْتَسْلَمَ إِسْمَاعِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ وَرَضِيَ بِهِ، وَفَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ؛ وَسَلَّمَهُ لِيَكُونَ عَوْنَ أَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَلِيَكُونَ جَدَّ آخِرِ نَبِيٍّ، وَأَفْضَلِ رَسُولٍ، لِيَكُونَ جَدَّ أُمَّةٍ تَضْطَلِعُ بِأَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَاشْتَرَكَ الْأَبُ وَالِابْنُ فِي بِنَاءِ بَيْتِ اللهِ،

وَكَانَ دُعَاؤُهُمَا أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ هَذَا الْبَيْتَ، وَيُبَارِكَ فِيهِ، وَأَنْ يَعِيشَا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَمُوتَا عَلَيْهِ، وَلَا يَنْقَطِعَ بِمَوْتِهِمَا، بَلْ تَرِثُهُ ذُرِّيَّتُهُ فَتَحْتَضِنُهُ، وَتَغَارُ عَلَيْهِ، وَتَدْعُو إِلَيْهِ، وَتُؤْثِرُهُ عَلَىٰ كُلِّ عَزِيزٍ، فَتَنْتَشِرُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ يَبْعَثَ اللهُ فِيهَا نَبِيًّا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، يُجَدِّدُ دَعْوَةَ جَدِّهِ إِبْرَاهِيمَ، وَيُتِمُّ مَا بَدَأَهُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩].

وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْبَيْتُ آمِنًا دَائِمًا، وَأَنْ يُسَلِّمَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ هُوَ أَشَدَّ كَرَاهَةً لِشَيْءٍ، وَلَا أَكْثَرَ تَقَزُّزًا وَلَا أَخْوَفَ عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ مِنْهَا؛ -أَيْ: مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ- فَقَدْ رَأَىٰ مَصِيرَ الْأُمَمِ، وَمَصِيرَ الْأُسَرِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ بُعِثُوا فِيهَا، وَبَعْدَ الْجُهُودِ الْجَبَّارَةِ، وَالدَّعَوَاتِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي قَامُوا بِهَا، وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ لِلدُّنْيَا فَرِيسَةً لِلشَّيَاطِينِ الْمُفْسِدِينَ، وَالدَّجَّالِينَ الْمُضِلِّينَ الْمُضَلِّلِينَ مِنْ عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَدُعَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُهُ، وَأَوْلَادُ أَوْلَادِهِ عَلَىٰ اتِّصَالٍ دَائِمٍ بِدَعْوَتِهِ وَجِهَادِهِ يَذْكُرُونَ قِصَّةَ مُحَارَبَتِهِ لِلْوَثَنِيَّةِ، وَخَلْعِهِ لِلْأَوْثَانِ، وَتَحْطِيمِهِ لَهَا، وَمُصَارَمَتِهِ لِلْوَالِدِ السَّادِنِ لِبَيْتِ الْأَصْنَامِ، وَفِرَاقِهِ لِلْأَهْلِ وَالْوَطَنِ، وَأَنْ يَذْكُرُوا سِرَّ اخْتِيَارِ هَذَا الْمَكَانِ الْقَاحِلِ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِلزَّرْعِ، وَلَا لازْدِهَارِ الْمَدَنِيَّةِ، وَيَعْرِفُ سِرَّ إِيثَارِهِ

الْمُدُنَ الْكَبِيرَةَ، وَالْأَمْكِنَةَ الصَّالِحَةَ لِلْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ وَأَسْبَابِ الْعَيْشِ، وَأَنْ يُعَوِّضَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبَ، وَيُهْوِيَ إِلَيْهِمُ الْأَفْئِدَةَ، وَيَسُوقَ إِلَيْهِمُ الرِّزْقَ الْكَرِيمَ، وَيُجْبَىٰ إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥- ٣٧].

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

إِطْلَالَةٌ عَلَى الْبِلَادِ وَالْأُمَمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْعَالَمِ عِنْدَمَا بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ وَسَيِّدَ النَّبِيِّينَ، كَانَتِ الْحَضَارَاتُ السَّائِدَةُ قَبْلَ الْبِعْثَةِ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الدِّيَانَاتُ كَثِيرَةً وَمُتَعَدِّدَةً، **فَمِنْ ذَلِكَ**:

الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ: كَانَتِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ تُعْرَفُ بِـ(الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ)، فَكَانَتْ تَحْكُمُ دُوَلَ الْيُونَانِ، وَالْبَلْقَانِ، وَآسْيَا، وَسُورِيَّا، وَفِلَسْطِينَ، وَتَحْكُمُ حَوْضَ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ بِأَسْرِهِ، وَمِصْرَ، وَتَحْكُمُ كُلَّ إِفْرِيقِيَّةَ الشَّمَالِيَّةِ، وَكَانَتْ عَاصِمَتُهَا (الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ)، وَكَانَتْ دَوْلَةً ظَالِمَةً؛ مَارَسَتِ الظُّلْمَ وَالْجَوْرَ، وَالتَّعَسُّفَ عَلَىٰ الشُّعُوبِ الَّتِي حَكَمَتْهَا، وَأَضَافَتْ عَلَيْهَا الضَّرَائِبَ، وَكَثُرَتْ الاضْطِرَابَاتُ، وَالثَّوْرَاتُ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُمُ الْعَامَّةُ قَائِمَةً عَلَىٰ كُلِّ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ، وَاللَّعِبِ، وَالطَّرَبِ، وَالتَّرَفِ.

أَمَّا مِصْرُ: فَكَانَتْ عُرْضَةً لِلِاضْطِهَادِ الدِّينِيِّ، وَالِاسْتِبْدَادِ السِّيَاسِيِّ، وَاتَّخَذَهَا الْبِيزَنْطِيُّونَ شَاةً حَلُوبًا يُحْسِنُونَ حَلْبَهَا، وَيُسِيئُونَ عَلْفَهَا.

أَمَّا سُورِيَّا: فَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا الْمَظَالِمُ، وَالرَّقِيقُ، وَلَا يَعْتَمِدُونَ فِي قِيَادَةِ الشَّعْبِ إِلَّا عَلَىٰ الْقُوَّةِ، وَالْقَهْرِ الشَّدِيدِ، وَكَانَ الْحُكْمُ حُكْمَ الْغُرَبَاءِ الَّذِي لَا يُشْعِرُ

بِأَيِّ ضَعْفٍ عَلَىٰ الشَّعْبِ الْمَحْكُومِ، وَكَثِيرًا مَا كَانَ السُّورِيُّونَ يَبِيعُونَ أَبْنَاءَهُمْ؛ لِيُوفُوا مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ دُيُونٍ.

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الرُّومَانِيُّ مَمْلُوءًا بِالتَّنَاقُضِ وَالِاضْطِرَابِ، وَقَدْ جَاءَ تَصْوِيرُهُ فِي كِتَابِ «الْحَضَارَةُ مَاضِيهَا، وَحَاضِرُهَا» كَالْآتِي:

«كَانَ هُنَاكَ تَنَاقُضٌ هَائِلٌ لِلْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْبِيزَنْطِيِّينَ؛ فَقَدْ رَسَّخَتِ النَّزْعَةُ الدِّينِيَّةُ فِي أَذْهَانِهِمْ مَبَادِئَ مِنَ الْمَبَادِئِ الْفَاسِدَةِ، وَعَمَّتِ الرَّهْبَانِيَّةُ، وَشَاعَتْ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا، وَأَصْبَحَ الرَّجُلُ الْعَادِيُّ فِي الْبِلَادِ يَتَدَخَّلُ فِي الْأَبْحَاثِ الدِّينِيَّةِ الْعَمِيقَةِ، وَالْجَدَلِ الْبِيزَنْطِيِّ، وَيَتَشَاغَلُ بِهَا، كَمَا طُبِعَتِ الْحَيَاةُ الْعَادِيَّةُ بِطَابَعِ الْمَذْهَبِ الْبَاطِنِيِّ، وَلَكِنْ نَرَىٰ هَؤُلَاءِ فِي جَانِبٍ آخَرَ حَرِيصِينَ أَشَدَّ الْحِرْصِ عَلَىٰ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ، وَالتَّرَفِ وَالطَّرَبِ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ مَيَادِينُ رِيَاضِيَّةٌ وَاسِعَةٌ تَتَّسِعُ لِجُلُوسِ ثَمَانِينَ أَلْفَ شَخْصٍ، يَتَفَرَّجُونَ فِيهَا عَلَىٰ مُصَارَعَاتٍ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالرِّجَالِ أَحْيَانًا، وَبَيْنَ الرِّجَالِ وَالسِّبَاعِ أَحْيَانًا أُخْرَىٰ، وَكَانُوا يُقَسِّمُونَ الْجَمَاهِيرَ فِي لَوْنَيْنِ: لَوْنٍ أَزْرَقَ، وَلَوْنٍ أَخْضَرَ.

لَقَدْ كَانُوا يُحِبُّونَ الْجَمَالَ، وَيَعْشَقُونَ الْعُنْفَ وَالْهَمَجِيَّةَ، وَكَانَتْ أَلْعَابُهُمْ دَمَوِيَّةً ضَارِيَةً فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ، وَكَانَتْ عُقُوبَتُهُمْ فَظِيعَةً تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ، وَكَانَتْ حَيَاةُ سَادَتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ عِبَارَةً عَنِ الْمُجُونِ وَالتَّرَفِ، وَالْمُؤَامَرَاتِ وَالْمُجَامَلَاتِ الزَّائِدَةِ، وَالْقَبَائِحِ وَالْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ».

وَهَذَا بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِحْدَىٰ الْقُوَّتَيْنِ الْعُظْمَيَيْنِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي بُعِثَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهِيَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ.

أَمَّا الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ: فَكَانَتْ تُعْرَفُ بِالدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ أَوِ الْكِسْرَوِيَّةِ، وَهِيَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا الدِّيَانَاتُ الْمُنْحَرِفَةُ كَالزِّرَادِشْتِيَّةِ وَالْمَانِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَهَا مَانِي فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْمِيلَادِيِّ.

ثُمَّ ظَهَرَتِ الْمَزْدَكِيَّةُ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْمِيلَادِيِّ الَّتِي دَعَتْ إِلَىٰ الْإِبَاحِيَّةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ انْتِشَارِ ثَوْرَاتِ الْفَلَّاحِينَ، وَازْدِيَادِ النَّهَّابِينَ لِلْقُصُورِ، فَكَانُوا يَقْبِضُونَ أَوْ يَأْسِرُونَ النِّسَاءَ، وَيَسْتَوْلُونَ عَلَىٰ الْأَمْلَاكِ وَالْعَقَارَاتِ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ وَالْمَزَارِعُ وَالدُّورُ كَأَنْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ قَبْلُ.

كَانَ مُلُوكُ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْكِسْرَوِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِالْوِرَاثَةِ، وَيَضَعُونَ أَنْفُسَهُمْ فَوْقَ بَنِي آدَمَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ نَسْلِ الْآلِهَةِ، وَأَصْبَحَتْ مَوَارِدُ الْبِلَادِ مِلْكًا لِهَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ، يَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بِبَذَخٍ لَا يُتَصَوَّرُ، وَيَعِيشُونَ عَيْشَ الْبَهَائِمِ حَتَّىٰ تَرَكَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمُزَارِعِينَ أَعْمَالَهُمْ أَوْ دَخَلُوا الْأَدْيِرَةَ وَالْمَعَابِدَ؛ فِرَارًا مِنَ الضَّرَائِبِ وَالْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَكَانُوا وَقُودًا حَقِيرًا فِي حُرُوبٍ طَاحِنَةٍ مُدَمِّرَةٍ قَامَتْ فِي فَتَرَاتٍ مِنَ التَّارِيخِ دَامَتْ سِنِينَ طِوَالًا بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ لَا مَصْلَحَةَ لِلشُّعُوبِ فِيهَا إِلَّا تَنْفِيذُ نَزَوَاتِ وَرَغَبَاتِ الْمُلُوكِ.

وَأَمَّا الْهِنْدُ: فَقَدِ اتَّفَقَتْ كَلِمَةُ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَىٰ أَنَّ أَحَطَّ أَدْوَارِهَا دِيَانَةً وَخُلُقًا وَاجْتِمَاعًا وَسِيَاسَةً كَانَ ذَلِكَ الْعَهْدَ الَّذِي فِي مُسْتَهَلِّ الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ؛ فَانْتَشَرَتِ الْخَلَاعَةُ حَتَّىٰ فِي الْمَعَابِدِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ أَعْطَاهَا لَوْنًا مِنَ التَّقْدِيسِ وَالتَّعَبُّدِ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ لَا قِيمَةَ لَهَا وَلَا عِصْمَةَ، وَانْتَشَرَتْ عَادَةُ إِحْرَاقِ الْمَرْأَةِ الْمُتَوَفَّىٰ زَوْجُهَا.

وَامْتَازَتِ الْهِنْدُ عَنِ أَقْطَارِ الْعَالَمِ فِي التَّفَاوُتِ الْفَاحِشِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ، وَكَانَ ذَلِكَ تَابِعًا لِقَانُونٍ سِيَاسِيٍّ مَدَنِيٍّ دِينِيٍّ، وَضَعَهُ الْمُشَرِّعُونَ الْهِنْدِيُّونَ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ صِفَةٌ دِينِيَّةٌ، وَأَصْبَحَ هُوَ الْقَانُونَ الْعَامَّ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَدُسْتُورَ حَيَاتِهِمْ، وَكَانَتِ الْهِنْدُ فِي حَالَةِ فَوْضَىٰ وَتَمَزُّقٍ انْتَشَرَتْ فِيهَا الْإِمَارَاتُ الَّتِي انْدَلَعَتْ فِيهَا الْحُرُوبُ الطَّاحِنَاتُ الَّتِي كَانَتْ بَعِيدَةً عَنْ أَحْدَاثِ عَالَمِهَا فِي عُزْلَةٍ وَاضِحَةٍ يُسَيْطِرُ عَلَيْهَا التَّزَمُّتُ وَالتَّطَرُّفُ فِي الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، وَالتَّفَاوُتُ الطَّبَقِيُّ، وَالتَّعَصُّبُ الدَّمَوِيُّ وَالسُّلَالِيُّ.

وَقَدْ تَحَدَّثَ مُؤَرِّخٌ هِنْدُوكِيٌّ، وَكَانَ أُسْتَاذًا لِلتَّارِيخِ فِي إِحْدَىٰ جَامِعَاتِ الْهِنْدِ عَنْ عَصْرٍ سَابِقٍ لِدُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي الْهِنْدِ فَقَالَ: «كَانَ أَهْلُ الْهِنْدِ مُنْقَطِعِينَ عَنِ الدُّنْيَا، مُنْطَوِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، لَا خِبْرَةَ لَهُمْ بِالْأَوْضَاعِ الْعَالَمِيَّةِ، وَهَذَا الْجَهْلُ أَضْعَفَ مَوْقِفَهُمْ، فَنَشَأَ فِيهِمُ الْجُمُودُ، وَعَمَّتْ فِيهِمْ أَمَارَاتُ الِانْحِطَاطِ، وَالتَّدَهْوُرِ. كَانَ الْأَدَبُ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِلَا رُوحٍ، وَهَكَذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي الْفَنِّ الْمِعْمَارِيِّ، وَغَيْرِهِ.

كَانَ الْمُجْتَمَعُ الْهِنْدِيُّ رَاكِدًا جَامِدًا، كَانَ هُنَاكَ تَفَاوُتٌ عَظِيمٌ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ، وَتَمْيِيزٌ مَعِيبٌ بَيْنَ أُسْرَةٍ وَأُسْرَةٍ، وَكَانُوا لَا يَسْمَحُونَ بِزَوَاجِ الْأَيَامَىٰ، وَيُشَدِّدُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فِي أُمُورِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، أَمَّا الْمَنْبُوذُونَ فَكَانُوا يَعِيشُونَ مُضْطَرِّينَ خَارِجَ بَلَدِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ.

كَانَ تَقْسِيمُ سُكَّانِ الْهِنْدِ عَلَىٰ أَرْبَعِ طَبَقَاتٍ:

- طَبَقَةُ الْكَهَنَةِ وَرِجَالِ الدِّينِ، وَهُمُ الْبَرَاهِمَةُ.

- وَرِجَالُ الْحَرْبِ وَالْجُنْدِيَّةِ وَهُمْ شَتْرَىٰ.

- وَرِجَالُ الْفِلَاحَةِ وَالتِّجَارَةِ وَهُمْ وَيْش.

- وَرِجَالُ الْخِدْمَةِ وَهُمْ شُودَر، وَهُمْ أَحَطُّ الطَّبَقَاتِ، فَقَدْ خَلَقَهُمْ خَالِقُ الْكَوْنِ فِي زَعْمِهِمُ الْجَاهِلِيِّ مِنْ أَرْجُلِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ سِوَىٰ خِدْمَةِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ وَإِرَاحَتِهَا.

وَقَدْ مَنَحَ هَذَا الْقَانُونُ الْبَرَاهِمَةَ مَرْكَزًا، وَمَكَانَةً لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَالْبُرْهُمِيُّ رَجُلٌ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلَوْ أَبَادَ الْعَوَالِمَ الثَّلَاثَةَ بِذُنُوبِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَلَا يَجُوزُ فَرْضُ جِبَايَةٍ عَلَيْهِ، وَلَا يُعَاقَبُ بِالْقَتْلِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ.

أَمَّا شُودَر فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقْتَنُوا مَالًا، أَوْ يَدَّخِرُوا كَنْزًا أَوْ يُجَالِسُوا بُرْهُمِيًّا أَوْ يَمَسُّوهُ بِأَيْدِيهِمْ، أَوْ يَتَعَلَّمُوا الْكُتُبَ الْمُقَدَّسَةَ.

www.mennag-un.com

أَحْوَالُ الْعَالَمِ الدِّينِيَّةِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

لَقَدْ كَانَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ قَبْلَ بُزُوغِ فَجْرِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ تَعِيشُ مَرْحَلَةً مِنْ أَحَطِّ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ فِي شُئُونِهَا الدِّينِيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَتُعَانِي مِنْ فَوْضَىٰ عَامَّةٍ فِي جَمِيعِ شُئُونِ حَيَاتِهَا، وَضَاعَ تَأْثِيرُ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ عَلَىٰ الْحَيَاةِ أَوْ كَادَ بِسَبَبِ مَا أَصَابَهَا مِنَ التَّبْدِيلِ، وَالتَّحْرِيفِ، وَالتَّغْيِيرِ الَّذِي جَعَلَهَا تَفْقِدُ أَهَمِّيَّتَهَا بِاعْتِبَارِهَا رِسَالَةَ اللهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَانْشَغَلَ أَهْلُهَا بِالصِّرَاعَاتِ الْعَقَدِيَّةِ النَّظَرِيَّةِ الَّتِي كَانَ سَبَبُهَا دُخُولَ الْأَفْكَارِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الْفَاسِدَةِ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَدْيَانِ حَتَّىٰ أَدَّىٰ إِلَىٰ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ بَيْنَهُمْ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَمْ يُحَرِّفْ، وَلَمْ يُبَدِّلْ قَلِيلٌ نَادِرٌ، وَآثَرَ الِابْتِعَادَ عَنْ دُنْيَا النَّاسِ، وَدَخَلَ فِي حَيَاةِ الْخَلْوَةِ وَالْعُزْلَةِ؛ طَمَعًا فِي النَّجَاةِ بِنَفْسِهِ يَائِسًا مِنَ الْإِصْلَاحِ.

وَوَصَلَ الْفَسَادُ إِلَىٰ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ، وَالْأَجْنَاسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَدَخَلَ فِي جَمِيعِ الْمَجَالَاتِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ..

فَفِي الْجَانِبِ الدِّينِيِّ: تَجِدُ النَّاسَ إِمَّا قَدِ ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ أَوْ خَرَجُوا مِنْهُ، أَوْ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهِ أَصْلًا، أَوْ وَقَعُوا فِي تَحْرِيفِ الدِّيَانَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَتَبْدِيلِهَا!

أَمَّا فِي الْجَانِبِ التَّشْرِيعِيِّ: فَإِنَّ النَّاسَ نَبَذُوا شَرِيعَةَ اللهِ، جَعَلُوهَا وَرَاءَهُمْ

ظِهْرِيًّا، وَاخْتَرَعُوا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قَوَانِينَ وَشَرَائِعَ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهَا تَصْطَدِمُ مَعَ الْعَقْلِ وَتَخْتَلِفُ مَعَ الْفِطْرَةِ، وَتَزَعَّمَ هَذَا الْفَسَادَ زُعَمَاءُ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ مِنَ الْقَادَةِ وَالرُّهْبَانِ وَالْقَسَاوِسَةِ وَالدَّهَّاقِينَ وَالْمُلُوكِ، وَأَصْبَحَ الْعَالَمُ فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ، وَلَيْلٍ بَهِيمٍ، وَانْحِرَافٍ عَظِيمٍ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

فَالْيَهُودِيَّةُ أَصْبَحَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ الطُّقُوسِ وَالتَّقَالِيدِ، لَا رُوحَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ، وَتَأَثَّرَتْ بِعَقَائِدِ الْأُمَمِ الَّتِي جَاوَرَتْهَا، وَاحْتَكَّتْ بِهَا، وَالَّتِي وَقَعَتْ تَحْتَ سَيْطَرَتِهَا، فَأَخَذَتْ كَثِيرًا مِنْ عَادَتِهَا وَتَقَالِيدِهَا الْوَثَنِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ مُؤَرِّخُ الْيَهُودِ، فَقَدْ جَاءَ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْيَهُودِيَّةِ: «إِنَّ سَخَطَ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَضَبَهُمْ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ وَالْآلِهَةِ كَانَتْ قَدْ تَسَرَّبَتْ إِلَىٰ نُفُوسِ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَلَمْ تُسْتَأْصَلْ شَأْفَتُهَا إِلَىٰ أَيَّامِ رُجُوعِهِمْ إِلَىٰ الْجَلَاءِ وَالنَّفْيِ فِي بَابِلَ، وَقَدِ اعْتَقَدُوا اعْتِقَدَاتٍ خُرَافِيَّةً وَشِرْكِيَّةً.

إِنَّ التَّلْمُودَ يَشْهَدُ -أَيْضًا- أَنَّ الْوَثَنِيَّةَ كَانَتْ فِيهَا جَاهِلِيَّةٌ خَاصَّةٌ لِلْيَهُودِ، إِنَّ الْمُجْتَمَعَ الْيَهُودِيَّ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ وَصَلَ إِلَىٰ الِانْحِطَاطِ الْعَقْلِيِّ، وَفَسَادِ الذَّوْقِ الدِّينِيِّ، فَإِذَا طَالَعْتَ تَلْمُودَ بَابِلَ الَّذِي يُبَالِغُ الْيَهُودُ فِي تَقْدِيسِهِ، وَالَّذِي كَانَ مُتَدَاوَلًا بَيْنَ الْيَهُودِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ النَّصْرَانِيِّ، إِذَا طَالَعْتَهُ وَجَدْتَ فِيهِ نَمَاذِجَ غَرِيبَةً مِنْ خِفَّةِ الْعَقْلِ، وَسُخْفِ الْقَوْلِ، وَالِاجْتِرَاءِ عَلَىٰ اللهِ، وَالْعَبَثِ بِالْحَقَائِقِ، وَالتَّلَاعُبِ بِالدِّينِ وَالْعَقْلِ.

أَمَّا النَّصْرَانِيَّةُ: فَقَدِ امْتُحِنَتْ بِتَحْرِيفِ الْغَالِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ، وَاخْتَفَىٰ نُورُ التَّوْحِيدِ، وَإِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَرَاءَ السُّحُبِ الْكَثِيفَةِ، وَانْدَلَعَتِ الْحُرُوبُ بَيْنَ النَّصَارَىٰ فِي الشَّامِ، وَالْعِرَاقِ، وَبَيْنَ نَصَارَىٰ مِصْرَ حَوْلَ حَقِيقَةِ الْمَسِيحِ وَطَبِيعَتِهِ، وَتَحَوَّلَتِ الْبُيُوتُ وَالْمَدَارِسُ وَالْكَنَائِسُ إِلَىٰ مُعَسْكَرَاتٍ مُتَنَافِسَةٍ، وَظَهَرَتِ الْوَثَنِيَّةُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي مَظَاهِرَ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَلْوَانٍ شَتَّىٰ.

أَمَّا الْمَجُوسُ، فَقَدْ عُرِفُوا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ بِعِبَادَةِ الْعَنَاصِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَأَعْظَمُهَا النَّارُ، وَانْتَشَرَتْ بُيُوتُ النَّارِ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا، وَعَكَفُوا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَبَنَوْا لَهَا مَعَابِدَ وَهَيَاكِلَ، وَكَانَتْ لَهَا آدَابٌ وَشَرَائِعُ دَقِيقَةٌ دَاخِلَ الْمَعَابِدِ أَمَّا خَارِجَهَا فَكَانَ أَتْبَاعُهَا أَحْرَارًا يَسِيرُونَ عَلَىٰ هَوَاهُمْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ مَنْ لَا دِينَ لَهُ.

وَيَصِفُ الْمُؤَرِّخُ الدِّنِمَارْكِيُّ طَبَقَةَ رُؤَسَاءِ الدِّينِ، وَيَصِفُ وَظَائِفَهُمْ عِنْدَ الْمَجُوسِ فِي كِتَابِهِ: «إِيرَانُ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ» فَيَقُولُ: «كَانَ وَاجِبًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْمُوَظَّفِينَ أَنْ يَعْبُدُوا الشَّمْسَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَيُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ عِبَادَةُ الْقَمَرِ وَالنَّارِ وَالْمَاءِ، وَكَانُوا مُكَلَّفِينَ بِأَدْعِيَةٍ خَاصَّةٍ عِنْدَ النَّوْمِ وَالِانْتِبَاهِ، وَالِاغْتِسَالِ وَلُبْسِ الزُّنَّارِ، وَالْأَكْلِ، وَحَلْقِ الشَّعْرِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظَافِرِ، وَقَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَإِيقَادِ السُّرُجِ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِأَنْ لَا يَدَعُوا النَّارَ تَنْطَفِئُ، وَأَنْ لَا تَمَسَّ النَّارُ وَالْمَاءُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَأَنْ لَا يَدَعُوا الْمَعْدِنَ يَصْدَأُ؛ لِأَنَّ الْمَعَادِنَ عِنْدَهُمْ مُقَدَّسَةٌ، كَانَ أَهْلُ إِيرَانَ يَسْتَقْبِلُونَ فِي صَلَاتِهِمُ النَّارَ، وَقَدْ حَلَفَ يَزْدَجِرْدُ آخِرُ

مُلُوكِ السَّاسَانِيِّينَ بِالشَّمْسِ مَرَّةً وَقَالَ: أَحْلِفُ بِالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ الْإِلَهُ الْأَكْبَرُ.

وَقَدْ دَانَ الْمَجُوسُ بِالثَّنَوِيَّةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَأَصْبَحَ ذَلِكَ شِعَارًا لَهُمْ، فَآمَنُوا بِإِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا: النُّورُ أَوْ إِلَهُ الْخَيْرِ، وَالثَّانِي: الظَّلَامُ أَوْ إِلَهُ الشَّرِّ!

أَمَّا الْبُوذِيَّةُ فِي الْهِنْدِ، وَآسْيَا الْوُسْطَىٰ فَقَدْ تَحَوَّلَتْ وَثَنِيَّةً تَحْمِلُ مَعَهَا الْأَصْنَامَ حَيْثُ سَارَتْ، وَتَبْنِي الْهَيَاكِلَ، وَتَنْصُبُ تَمَاثِيلَ بُوذَا حَيْثُ حَلَّتْ وَنَزَلَتْ.

أَمَّا الْبَرْهَمِيَّةُ دِينُ الْهِنْدِ الْأَصْلِيُّ: فَقَدِ امْتَازَتْ بِكَثْرَةِ الْمَعْبُودَاتِ وَالْآلِهَةِ، وَقَدْ بَلَغَتْ أَوْجَهَا فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ الْمِيلَادِيِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الدِّيَانَةَ الْهِنْدُوكِيَّةَ، وَالْبُوذِيَّةَ وَثَنِيَّتَانِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ.

لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا الْمَعْمُورَةُ مِنَ الْبَحْرِ الْأَطْلَسِيِّ إِلَىٰ الْمُحِيطِ الْهَادِي غَارِقَةً فِي الْوَثَنِيَّةِ، وَكَأَنَّمَا كَانَتِ الْمَسِيحِيَّةُ، وَالْيَهُودِيَّةُ، وَالْبُوذِيَّةُ، وَالْبَرْهَمِيَّةُ تَتَسَابَقُ فِي تَعْظِيمِ الْأَوْثَانِ وَتَقْدِيسِهَا!! وَكَانَتْ كَخَيْلِ رِهَانٍ تَجْرِي فِي حَلْبَةٍ وَاحِدَةٍ».

وَقَدْ أَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ عُمُومِ هَذَا الْفَسَادِ لِجَمِيعِ الْأَجْنَاسِ، وَجَمِيعِ الْمَجَالَاتِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ؛ فَقَدْ قَالَ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا؛ كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ** -وَالْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، أَشَدُّ

الْكَرَاهِيَةِ- **وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ، وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ يُشِيرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ مَا عَمَّ الْعَالَمَ مِنَ الْفَسَادِ فِي جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ، وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ بِعْثَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَهَذَا مُجْمَلُ حَالِ الْعَالَمِ عِنْدَ بِعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يَدُلُّكَ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ مُنْتَظِرًا لِقُدُومِ هَذَا النَّبِيِّ الْمُخَلِّصِ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ هَذَا الظَّلَامِ إِلَىٰ النُّورِ، وَمِنْ هَذَا الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْهِدَايَةِ بِفَضْلِ اللهِ الْعَلِيِّ الْغَفُورِ.

وَأَمَّا حَالُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ: فَلَهَا جَوَانِبُ مُتَعَدِّدَةٌ:

www.menhag-un.com

الْحَالَةُ الدِّينِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ

فَأَمَّا الْحَالَةُ الدِّينِيَّةُ لِلْعَرَبِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ: فَقَدِ انْتَشَرَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ عَدَدٌ مِنَ الدِّيَانَاتِ مِنْ أَهَمِّهَا الْوَثَنِيَّةُ: ظَلَّ مُعْظَمُ الْعَرَبِ يَدِينُ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنَفِيَّةِ، وَلَكِنْ مَعَ مُرُورِ الْقُرُونِ انْحَرَفَ الْعَرَبُ عَنْهَا، وَبَلَغَ الانْحِرَافُ ذِرْوَتَهُ خِلَالَ زَعَامَةِ خُزَاعَةَ عَلَىٰ مَكَّةَ حَيْثُ اسْتَفْحَلَتِ الْوَثَنِيَّةُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعَالِمِ الْحَنِفِيَّةِ إِلَّا بَعْضُ الشَّعَائِرِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْحَجِّ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَحَتَّىٰ هَذِهِ الشَّعَائِرُ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التَّحْرِيفِ.

جَاءَتْ خُزَاعَةُ بَعْدَ الْجَرَاهِمَةِ بَعْدَ قَبِيلَةِ جُرْهُمٍ، وَكَانَتْ تَلِي الْبَيْتَ وَتَقُومُ عَلَىٰ شَأْنِهِ، فَنَحَّتْهَا عَنْ ذَلِكَ قَبِيلَةُ خُزَاعَةَ، وَدَخَلَ الشِّرْكُ عَلَىٰ الْعَرَبِ، وَدَخَلَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيُّ أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ الْأَصْنَامَ إِلَىٰ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَدِمَ بِهَا مِنَ الشَّامِ، وَنَشَرَهَا مُسْتَغِلًّا مَكَانَتَهُ فِي الْحِجَازِ، فَاتَّخَذَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ صَنَمًا لَهَا تُعَظِّمُهُ، وَتَفْخَرُ بِهِ، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا الْمَعَابِدَ، وَقَدَّمُوا لَهَا الْقَرَابِينَ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ بَعْضُ مَا نَالَهُ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ جَزَاءَ نَشْرِهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَحَرْفِهِ النَّاسَ عَنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، فَوَرَدَ **أَنَّ الرَّسُولَ** صلى الله عليه وسلم **رَآهُ فِي النَّارِ يَجُرُّ قُصْبَهُ** أَيْ: أَمْعَاءَهُ.

كَانَ الْعَرَبُ فِي وَثَنِيَّتِهِمْ يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ الْإِلَهِ، يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ خَالِقُ الْكَوْنِ وَمُدَبِّرُهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وَلَكِنَّهُمْ فِي وَثَنِيَّتِهِمْ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، فَأَشْرَكُوا مَعَهُ الْأَصْنَامَ فِي الْعِبَادَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَأَنَّهَا شُفَعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ.

مِنَ انْحِرَافَاتِ الْوَثَنِيِّينَ: إِنْكَارُهُمْ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْجَزَاءِ بَعْدَ الْحِسَابِ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وَمِنْ مَظَاهِرِ الانْحِرَافِ عِنْدَ الْوَثَنِيِّينَ: التَّحَاكُمُ إِلَىٰ الْكَهَنَةِ وَالْعَرَّافِينَ، وَالتَّطَيُّرُ، وَالِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ فَقَدِ انْتَشَرَتْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَصْنَامِهِمْ (هُبَلُ) الَّذِي كَانَ بِجَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ هَذَا الصَّنَمُ مِنَ الْعَقِيقِ عَلَىٰ صُورَةِ إِنْسَانٍ، وَكَانَ مَكْسُورَ الذِّرَاعِ، فَأَبْدَلَهُ الْقُرَشِيُّونَ ذِرَاعًا مِنْ ذَهَبٍ، وَمِنْ أَشْهَرِ أَصْنَامِهِمْ (وَدٌّ)، وَكَانَ لِقَبِيلَةِ كَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ.

أَمَّا (اللَّاتُ) فَكَانَتْ بِالطَّائِفِ لِثَقِيفٍ، وَكَانَتِ اللَّاتُ صَخْرَةً كَبِيرَةً تُعَظِّمُهَا ثَقِيفٌ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدْمِهَا بَعْدَ خُضُوعِهِمْ، وَدُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا (الْعُزَّىٰ) فَكَانَتْ بِوَادِي نَخْلَةَ، وَقَدْ قَطَعَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَمَّا (مَنَاةُ) فَكَانَتْ بِالْمُشَلَّلِ من قُدَيْدٍ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ وَغَسَّانُ يُعَظِّمُونَهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَكَانُوا يَحُجُّونَ إِلَيْهَا، وَكَانَ مَنْ أَهَلَّ لَهَا لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَيَتَحَرَّجُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَىٰ تَحَرُّجِهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قَوْلَهُ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فَجَاءَتِ الْآيَةُ لِنَفْيِ هَذَا الْحَرَجِ الَّذِي كَانَ فِي نُفُوسِهِمْ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْيِ الْجُنَاحِ -وَهُوَ الْحَرَجُ- مَا يَنْفِي وُجُوبَ السَّعْيِ أَوْ فَرْضِيَّتَهُ.

وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَصْنَعُ لِنَفْسِهِ الصَّنَمَ مِنَ الْعَجْوَةِ أَوِ الْحَلْوَىٰ فَإِذَا جَاعَ أَكَلَهُ، وَوَجَدَ أَحَدُهُمْ يَوْمًا صَنَمًا لَهُ، وَقَدْ بَالَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ فَرَمَىٰ بِهِ وَقَالَ:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

لَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ تَخْلُقُ أَوْ تُدَبِّرُ الْكَوْنَ أَوْ تَرْزُقُ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْخَالِقَ هُوَ اللهُ؛ قَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

أَيْ: كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ الْحَقِّ إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَ مَا ذَكَرَهُ اللهُ جَلَّوَعَلَا عَنْهُمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وَهَكَذَا صَدَقَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا نَفَىٰ الْوَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي عِبَادَتِهِ، وَجَعَلَ طَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مَفْتُوحًا لِمَنْ يُرِيدُ، وَأَنَّ الْمُشْرِكِينَ نَاقَضُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَمَا أَقَرُّوا بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ.

لَقَدْ عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَكَانَ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ صَنَمٌ؛ فَكَانَ لِهُذَيْلِ بْنِ مُدْرِكَةَ سُوَاعٌ، وَلِكَلْبٍ وَدٌّ، وَلِمَذْحِجٍ يَغُوثُ، وَلِخَيْوَانَ يَعُوقُ، وَلِحِمْيَرَ نَسْرٌ، وَكَانَتْ خُزَاعَةُ وَقُرَيْشٌ تَعْبُدُ إِسَافًا وَنَائِلَةَ، وَكَانَتْ مَنَاةُ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ تُعَظِّمُها الْعَرَبُ كَافَّةً، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ خَاصَّةً، وَكَانَتِ اللَّاتُ فِي ثَقِيفٍ، وَكَانَتِ الْعُزَّىٰ فَوْقَ ذِي عِرْقٍ، وَكَانَتْ أَعْظَمَ الْأَصْنَامِ عِنْدَ قُرَيْشٍ، وَإِلَىٰ جَانِبِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الرَّئِيسَةِ يُوجَدُ عَدَدٌ لَا يُحْصَىٰ مِنَ الْأَصْنَامِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي يَسْهُلُ نَقْلُهَا فِي أَسْفَارِهِمْ، وَوَضْعُهَا فِي بُيُوتِهِمْ.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ قَالَ: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الْآخَرَ فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا جَمَعْنَا جُثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ»!

فَهَذَا لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ شِرْكِهِمْ، وَهُوَ كَمَا تَرَىٰ يُصَادِمُ أَدْنَىٰ مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلٍ، عِنْدَ مَنْ عِنْدَهُ ذَرْوٌ عَقْلٍ يَقُولُ: «كُنَّا نَعْبُدُ الْحَجَرَ، فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الْآخَرَ». وَهَذَا الْمُلْقَىٰ كَانَ إِلَهًا يُعْبَدُ، وَالْآن يُلْقَىٰ وَيُوطَأُ بِالنِّعَالِ، وَتَبُولُ عَلَيْهَا الثَّعَالِبُ، وَتَطَأُهُ الْكِلَابُ؛ يَقُولُ: «فَإِذَا وَجَدْنَا حَجَرًا هُوَ أَخْيَرُ مِنْهُ أَلْقَيْنَاهُ، وَأَخَذْنَا الْآخَرَ، فَإِذَا لَمْ نَجِدْ حَجَرًا، جَمَعْنَا جَثْوَةً مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جِئْنَا بِالشَّاةِ فَحَلَبْنَاهُ عَلَيْهَا، ثُمَّ طُفْنَا بِهِ».

أَمَّا الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَدْ أَصَابَهَا التَّحْرِيفُ، وَالتَّغْيِيرُ وَالتَّبْدِيلُ، فَصَارَ الْحَجُّ مَوْسِمًا لِلْمُفَاخَرَةِ، وَالْمُنَافَرَةِ، وَالْمُبَاهَاةِ، وَانْحَرَفَتْ بَقَايَا مُعْتَقَدَاتِ الْحَنِيفِيَّةِ عَنْ حَقِيقَتِهَا، وَأُلْصِقَ بِهَا مِنَ الْخُرَافَاتِ، وَالْأَسَاطِيرِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ.

وَكَانَ يُوجَدُ بَعْضُ الْأَفْرَادِ مِنَ الْحُنَفَاءِ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ، وَالنَّحَائِرِ، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ: زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ كَانَ لَا يَذْبَحُ لِلْأَنْصَابِ، وَلَا يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَكَانَ يَقُولُ:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ

عَزَلْتُ اللَّاتَ، وَالْعُزَّىٰ جَمِيعًا ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَلْدُ الصَّبُورُ

فَلَا عُزَّىٰ أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا ... وَلَا صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ

وَلَا غَنَمًا أَدِينُ، وَكَانَ رَبًّا لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي يَسِيرُ

إِلَىٰ أَنْ قَالَ:

وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي لِيَغْفِرَ ذَنْبِيَ الرَّبُّ الْغَفُورُ

وَمِمَّنْ كَانَ يَدِينُ بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ -عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِيُّ؛ فَقَدْ كَانَ خَطِيبًا حَكِيمًا عَاقِلًا لَهُ نَبَاهَةٌ، وَفَضْلٌ، وَكَانَ يَدْعُو إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ كَمَا كَانَ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَمِنَ الْحُنَفَاءِ: وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، رُوِيَ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ زَيْدِ بْنِ نُفَيْلٍ يَبْحَثَانِ عَنْ دِينٍ صَحِيحٍ يَتَّبِعَانِهِ، وَبَعْدَ الْبَحْثِ تَنَصَّرَ وَرَقَةُ، وَلَمْ يَرْتَضِ زَيْدٌ سِوَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

وَخَبَرُ وَرَقَةَ، وَالْآثَارُ الْوَارِدَةُ فِي إِسْلَامِهِ عِنْدَ بِدَايَةِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ كُلُّ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ، وَلَهُ أَبْيَاتٌ شِعْرِيَّةٌ رَائِعَةٌ فِي التَّوْحِيدِ، وَالْبَعْثِ.

وَمِنَ الْحُنَفَاءِ: أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَلَقَدْ كَادَ أَنْ يُسْلِمَ فِي شِعْرِهِ**» كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي «الصَّحِيحِ».

وَيُقَالُ إِنَّهُ تَنَصَّرَ، وَأَكْثَرَ فِي شِعْرِهِ مِنْ ذِكْرِ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَدْ

كَانَ مِنْ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ عَاشَ إِلَىٰ زَمَانِ الْبِعْثَةِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ؛ تَكَبُّرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ تَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ، قِيلَ: إِنَّهُ مَاتَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَقِيلَ: سَنَةَ اثْنَتَيْنِ، وَلَهُ شِعْرٌ فِي رِثَاءِ قَتْلَىٰ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ.

وَمِنْهُمْ: لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ ثُمَّ الْكِلَابِيُّ ثُمَّ الْكَعْبِيُّ، ثُمَّ الْجَعْفَرِيُّ، كَانَ مِنْ فُحُولِ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمِنْ شُعَرَاءِ الْمُعَلَّقَاتِ، وَمُعَلَّقَةُ لَبِيدٍ مَعْرُوفَةٌ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهُ: «**أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ**»، وَقَدْ أَسْلَمَ لَبِيدٌ، وَمَاتَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بَعْدَ أَنْ عَاشَ مِئَةً وَخَمْسِينَ عَامًا، وَقِيلَ أَكْثَرَ.

وَمِمَّنْ ذُكِرَ مِنَ الْحُنَفَاءِ سِوَىٰ هَؤُلَاءِ: أَرْبَابُ بْنُ رِئَابٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ عَامِرٍ الْمُصْطَلِقِيُّ، وَأَسْعَدُ أَبُو كَرِمٍ الْحِمْيَرِيُّ، وَوَكِيعُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَيْدِيُّ، وَعُمَيْرُ بْنُ حَيْدَبٍ الْجُهَنِيُّ، وَعَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ الْعِبَادِيُّ وَقَدْ تَنَصَّرَ، وَغَيْرُهُمْ ذَكَرَهُمُ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي «الْمَعَارِفِ»، وَالْآلُوسِيُّ فِي «بُلُوغِ الْأَرَبِ».

فَهَؤُلَاءِ مَعَ إِطْبَاقِ هَذَا الظَّلَامِ عَلَىٰ نُفُوسٍ وَقُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ كَانَ النُّورُ يَنْفُذُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ، هَؤُلَاءِ الْحُنَفَاءُ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْبُدُوا رَبَّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَتَنَصَّلُوا وَتَنَزَّهُوا عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَعَنِ الذَّبْحِ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ، حَتَّىٰ جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَدَا الطَّرِيقُ وَاضِحًا، وَالنَّهْجُ لَاحِبًا؛ فَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ.

مِمَّا كَانَ شَائِعًا بَيْنَ الْعَرَبِ: عِبَادَةُ الْمَلَائِكَةِ، وَالْجِنِّ: فَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَيُسَمِّيهَا بَنَاتِ اللهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْجِنَّ زَاعِمًا أَنَّ بَيْنَهَا

وَبَيْنَ اللهِ نَسَبًا وَصِهْرًا؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ مُوَبِّخًا لَهُمْ، وَمُنْكِرًا عَلَيْهِمْ، وَمُسَفِّهًا لِآرَائِهِمْ: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٣- ١٥٨].

الْجِنَّةُ: أَيِ: الْجِنُّ، فَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ نَسَبًا وَصِهْرًا.

وَالْجِنَّةُ الْمُرَادُ بِهَا فِي الْآيَةِ: الْجِنُّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٧].

وَمِنْ عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةِ: إِنْكَارُ الْبَعْثِ، وَقَدْ قَرَّرَ الْقُرْآنُ الْإِنْكَارَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ فَقَالَ تَعَالَىٰ ذَاكِرًا لِمَقَالَتِهِمْ: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٦- ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [ق: ١- ٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

وَكَانَ بَعْضُهُمْ دَهْرِيِّينَ، يَقُولُونَ كَمَا ذَكَرَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَكَانُوا يُنْكِرُونَ رِسَالَةَ الرُّسُلِ، وَأَنْ يُرْسِلَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولًا مِنَ الْبَشَرِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وَقَالَ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ، وَبَيَانَ أَنَّ اللهَ مَا أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَّا مِنَ الْبَشَرِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣- ٤٤].

وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧- ٨].

وَمِنْ عَقَائِدِهِمْ: الِاسْتِقْسَامُ بِالْأَزْلَامِ، وَكَانَتْ ثَلَاثَةً مَكْتُوبٌ عَلَىٰ أَحَدِهَا: (أَمَرَنِي رَبِّي)، وَعَلَىٰ الْآخَرِ: (نَهَانِي رَبِّي)، وَالثَّالِثُ: غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَوْ غَزْوًا أَوْ تِجَارَةً أَوْ نِكَاحًا أَوْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ ضَرَبَ الْقِدَاحَ، وَكَانَتْ عِنْدَ سَادِنٍ -أَيْ: خَادِمٍ- لِلصَّنَمِ الْأَكْبَرِ هُبَلَ، وَكَانَتْ تُوضَعُ فِي خَرِيطَةٍ -أَيْ: فِي كِيسٍ مِنْ جِلْدٍ-، ثُمَّ يُجَلْجِلُهَا، ثُمَّ يَضَعُ السَّادِنُ يَدَهُ فَإِذَا خَرَجَ

الْآمِرُ (أَمَرَنِي رَبِّي) مَضَىٰ لِشَأْنِهِ، وَإِذَا خَرَجَ النَّاهِي (نَهَانِي رَبِّي) أَمْسَكَ، وَإِذَا خَرَجَ الْغُفْلُ أَجَالَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ.

وَقَدْ حَرَّمَ الْإِسْلَامُ هَذَا؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ...﴾، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ﴾ [المائدة: ٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

كَانُوا يُحَلِّلُونَ وَيُحَرِّمُونَ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ: تَحْرِيمُهُمُ الْبَحِيرَةَ، وَالسَّائِبَةَ، وَالْوَصِيلَةَ، وَالْحَامَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ؛ فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ** -أَيْ: أَمْعَاءَهُ- **فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**».

أَمَّا الْبَحِيرَةُ: فَهِيَ الَّتِي بُحِرَتْ أُذُنُهَا أَيْ: شُقَّتْ، كَانَتِ النَّاقَةُ أَوِ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذُنَهَا، وَتَرَكُوهَا لِلطَّوَاغِيتِ أَيْ: لِلْأَصْنَامِ، فَلَا يَرْكَبُهَا أَحَدٌ، وَلَا يَنْتَفِعُ بِلَحْمِهَا، وَلَا وَبَرِهَا، وَلَا لَبَنِهَا.

وَأَمَّا السَّائِبَةُ: فَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْذِرُ إِنْ بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ أَوْ قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ لَيُسَيِّبَنَّ بَعِيرًا، فَكَانُوا يَتْرُكُونَهُ لِآلِهَتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ.

وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ: فَهِيَ النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبْكِرُ فِي أَوَّلِ نَتَاجِهَا بِأُنْثَىٰ ثُمَّ تُثَنِّي بِأُنْثَىٰ، فَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ، وَيَقُولُونَ: وَصَلَتْ إِحْدَىٰ الْأُنْثَيَيْنِ بِالْأُخْرَىٰ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ.

وَأَمَّا الْحَامُ: فَهُوَ فَحْلُ الْإِبِلِ إِذَا نَتَجَ عَنْهُ عَشْرَةُ أَبْطُنٍ قَالُوا: حَمَىٰ ظَهْرَهُ، وَيَتْرُكُونَهُ لِأَصْنَامِهِمْ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهُ بِشَيْءٍ.

وَهَذَا لَا شَكَّ تَشْرِيعٌ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَفِيهِ إِضَاعَةٌ لِلْمَالِ بِغَيْرِ دَاعٍ؛ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فَقَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

كَمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ صَنِيعَهُمْ هَذَا كَذِبٌ، وَافْتِرَاءٌ عَلَىٰ اللهِ، فَقَالَ -جَلَّ شَأْنُهُ-: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وَكَذَلِكَ جَعَلُوا لِلْأَصْنَامِ نَصِيبًا فِي الْأَنْعَامِ، وَالزُّرُوعِ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ نَصِيبًا، وَآثَرُوا جَانِبَ الْأَصْنَامِ عَلَىٰ جَانِبِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كَانُوا يُحَرِّمُونَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ حِينًا، وَيُحَرِّمُونَ إِنَاثَهَا حِينًا آخَرَ، وَتَارَةً ثَالِثَةً كَانُوا يُحَرِّمُونَ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، لَا يَسْتَقِرُّونَ عَلَىٰ حَالٍ، ولا يستندون إلىٰ حجة؛ فَجَادَلَهُمُ اللهُ بِالْحِكْمَةِ، وَالْمَنْطِقِ الْقَوِيمِ، فَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣- ١٤٤]. إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ ابْتِدَاعَاتِهِمْ وَافْتِرَاءَتِهِمْ.

فَهَذِهِ صُورَةٌ مُجْمَلَةٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ الْوَثَنِيُّونَ فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَدِيَانَاتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ الَّتِي هِيَ دِينُ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَبِهَذَا تَعْلَمُ مَدَىٰ الانْحِرَافِ الَّذِي وَقَعَ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، وَمَدَىٰ الْبُعْدِ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ، وَمَا عَلَيْهِ الدِّينُ الْحَقُّ، فَتَرَىٰ بُعْدَ الشُّقَّةِ بَيْنَ الْهُدَىٰ وَالضَّلَالِ، بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، فَعَانَدُوهُ، وَحَارَبُوهُ حَتَّىٰ هَمُّوا بِاغْتِيَالِهِ، فَأَذِنَ اللهُ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ -صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ-.

www.menhag-un.com